لا يشقى من بداخلها أبدا.. هنا مملكة الجمال

بقلم: نجلاء أشرف

obeikan.com

يطوف في بلاد الله، وسط خلق الله، تائه.. متعب.. قلبه يثقله ويكاد يسقط من بين جنبيه فيحمله صاحبه ويجره جرًّا ليتحمل ما بقي له من أعباء يومية يفعلها مضطرًّا كل يوم، لم يعد يتحمل أكثر من ذلك، لم يعد يستطيع حتى أن يبتسم للمارة في الصباح، مات بداخله الشعور بعدما أحرق قلبه الألم، أصبح لا يريد الحياة، يستيقظ كل يوم لينتظر نهايته، تذهب الثواني عليه في عمله كساعات طويلة لها أطراف حادة كالسكاكين؛ كل ثانية تدفع التي تليها وترسم بسنها الحاد لوحة لعمره.. ألوانها باهتة مليئة بالملل والتذمر والاستسلام لأنياب الاكتئاب.. هكذا أصبح أغلب من في مجتمعنا، وهذه حياة من لم يَرَ أنوار لطف الله في أقداره، فَتَعِسَ في وحدته وهو محاط بنداءات الشوق والود والعناية...

لكل منا طريق يمشيه حتى يصل إلى نهايته، وطريق أعمارنا مليء بالمحطات التي قد تغير طريقة تفكيرنا أو قد تغير شعور قلوبنا بما يحدث فيها نتيجة الأقدار المختلفة.. في كل محطة نجد أبوابًا كثيرة؛ نحن فقط من نختار أن نفتحها أو نغلقها، ولكل باب مفاتيح خاصة لا يُفتح سوى بالإرادة والنور، منها باب للصبر وباب للهروب والحزن وباب لرؤية جمال الأقدار...

لكل منا أسرار في قلبه لا يعلمها أحد سواه، ولكل منا أوجاعه الخاصة التي تجعله ينكسر وتجعل رؤيته تتشوش، بل وأحيانًا يطلب أن يكون الموت خلاصه مما يحمله في قلبه، لأنه لم يعد يحتمل هذا العبء بعد الآن.. أما وقد دخل باب «رؤية جمال الأقدار» فستناديه طيور الحب بأن أَقْبِلْ ولا تخف؛ هنا نجاتك، وتناجيه نجوم الليل بأنك لست وحدك في هذا الكون، كلنا ها هنا نلألئ من أجل أن نؤنس وحشتك ونعرفك أن هذا الكون أكبر من تصورك، وأنه برغم كبره وعظمة خالقه، فإن هذا الخالق يهتم بك أكثر من نفسك، فلا تجعل الحزن يأكل روحك ويطفئ النور بداخلها!

هنا مملكة الجمال لا يشقى من يدخلها أبدًا، بل يجد من يشبهه ويساعده على تخطي قبح النفوس المريضة، التي يشوهها سوء الظن بالله وتلبيس شيطانه.. هنا ستجد رفقاء دربك الفرسان، الذين يحاربون القبح بالحب، ويملؤون العالم رحمة، برغم ما في قلوبهم من ألم.. هنا طيور الحب التي ستعلمك أن تُحلّق بجناحي الذكر والفكر، فذكرك لمحبوبك يزيل الأكدار والأحزان من قلبك، وتأملك بالفكر في أحوالك وكل موقف يحدث لك يطهرك من سوء ظنك وخوفك من الغد المجهول والحزن على الماضي المقسوم.

تُرى حين كتب الله على قلبك أن يحزن لفقده شخصًا تحبه، أَفَعَلَهُ ليحرمك أم ليكرمك؟ تراه يَبخل عليك؟ حاشاه، وهو الكريم، وهو من إذا أعطى كل سائلاً سؤاله لا ينقص ذلك من خزائنه شيئًا، أم فعل ذلك ليؤدبك ويعلمك ألا يكون بقلبك سواه، وألا تنشغل سوى بما يصلح؟! ربما هذا الفقد جاء ليميتك فيحييك الله من جديد بقدرته، وهذ القلب الخائف الذابل يموت ليحيا قلب منير بحب الله، لا يخشى شيئًا سوى بُعده عن محبوبه، مَن لم يخلقه إلا ليجعله يتعرف عليه في كل أقداره ليشتاق أكثر ويحبه أكثر ويطيعه أكثر...

أتذكر حين أعياك المرض مرات عديدة وشفاك، وحين كاد يصيبك سهم الموت أكثر من مرة ونجّاك، فله حكمة في كل شيء، له حكمة في وقت ميلادك وموتك وحتى تيهك، لينير طريق حياتك بأنوار محبته، ويجعل حياتك جنة لأنك ترى لطفه في كل أقداره، فلطفه يجري وأنت لا تدري، وإن لم تَرَ اللطف، فذلك في حد ذاته لطف، فقد لا تتحمل رؤية جمال أنوار اللطف، وقد لا يستطيع عقلك البشري الصغير أن يفهم حكمة المنع أو العطاء؛ قد تصبح غنيًّا فبدلاً من أن تدعو الله بالستر، تبارزه بالمعاصي، وقد تكون سعيدًا فتنسى أنه هو من أسعدك! ولكنه سبحانه يقلب قلبك بين أحوال عديدة لترى الكون به، لتتيقن أن أيًّا كانت ما ستجلبه لك الأقدار فهو رزقك، وهو خير لك، سينصلح به حالك، ويُنقّي قلبك، وإن تهت قليلاً قبل أن تفهم هذا، ما دمت ترى أن الفاعل الحقيقي في هذا العالم هو الله، لم يمنعك أحد سواه، ولم يرزقك أحد إلاه.. ليس رئيسك في العمل هو من فصلك من العمل في الحقيقة لتحزن بل ساقه الله ليعطيك شيئًا أفضل أو يحميك من شيء أسوأ، أو لحكمة لا يريد أن يُفهمك إياها الآن، وهو لا يُسأل عما يفعل، فهو العليم الخبير؛ لا يُفرض عليه شيء سبحانه.

أنت حر في مملكة رؤية جمال خلق الله، سواء كانت أقدارًا أو مخلوقات أو سماءً تطير فيها الطيور بلا حاجز أو رافع سوى مَعيّة الله وتدبيره، عندما تُعوّد عينيك أن ترى الجمال، لن يُشقيك القبح بقدر ما سيسقيك الشوق، لتتعرف على من يتنزل كل ليلة في السماء الدنيا لينادیك ويرحمك ويتودد إليك، ليس عليك سوى أن تختاره، وهو -جل وعلا- سيغنيك به عن ما سواه!

obeikan.com